

سكان فلسطين

ودراسة تاريخهم الجنسى

عناصر البحث :

- ١ - الظروف الجغرافية العامة ذات الأثر في تعمير فلسطين بالسكان .
- ٢ - إنسان ما قبل التاريخ في فلسطين .
- ٣ - عصر بداية المعدن : الهجرات السامية وأثرها في تعمير فلسطين .
- ٤ - الهجرات غير السامية : الفلسطينيين - الحيشيون .
- ٥ - العصر الاغريقي الرومانى - بدء تشتت اليهود وتعريب فلسطين .
- ٦ - الشعب العربى الفلسطينى .
- ٧ - اليهود : انتشارهم فى العالم . وصفاتهم الجنسية .
- ٨ - خاتمة : ملاحظات عامة .

تقديم :

سنحاول فى هذا البحث تتبع الشعوب التى رحلت إلى فلسطين منذ أقدم العصور واستيطانها وتوزيع منازلها ، ثم استعراض صلة هذه الشعوب القديمة سامية أو غير سامية بالشعبين اللذين يتنازعان هذا القطر ، مع دراسة تاريخ تعريب فلسطين . ولا بأس من تتبع اليهود فى بقاع الأرض المختلفة التى هاجر أسلافهم إليها . أو التى اختلطوا بأهلها أو اعتنق أهلها الدين اليهودى . إذ منهم تتكون هجرات اليهود الحديثة إلى فلسطين . وبالتالى تتكون جمهرة اليهود فى الأقاليم التى يتركزون فيها . فى السهل الساحلى وسهل مرج ابن عامر .

وسنستعين فى هذه الدراسة بحقائق التاريخ . التى نحصل عليها من الوثائق التاريخية أو استنتاجاً من الحفائر الأثرية . أو ما تواتر إلينا من أبناء الماضى عن طريق العهد القديم من الكتاب المقدس . هذا الكتاب الذى جمعت أسفاره

في فلسطين نفسها ابتداء من القرن الثالث عشر ق. م تقريباً . ولم يكتمل إلا قبيل ظهور المسيح عليه السلام (١) . على أن الباحث يستعين على فهم الإشارات التاريخية الواردة في هذه الأسفار بنتائج الحفائر التي أجريت في فلسطين وغيرها من أجزاء الشرق الأدنى . وبأبحاث علم الأجناس والسلالات . غير أن طبيعة هذا البحث تجعلنا أكثر اعتماداً على نتائج علم الأجناس والسلالات من جهة ، والأخذ بمنهج البحث الجغرافي من جهة أخرى . وهكذا سنأخذ بأطراف علوم ثلاثة تهتم بدراسة الإنسان ونشاطه من وجهات نظر متعددة ومتكاملة لا سبيل إلى الفصل بينها . وهي التاريخ وعلم الأجناس والجغرافيا .

١ - الظروف الجغرافية العامة ذات الأثر في تعمير فلسطين بالسكان :

لا شك أن الظروف الجغرافية العامة التي تحيط بفلسطين لعبت دوراً رئيسياً في توجيهها الجغرافي واستقبالها للقبائل والشعوب في الأزمنة القديمة . ولذلك يحسن بنا أن نبدأ بالإلمام بهذه الظروف الجغرافية التي تعين على فهم حركات هذه القبائل والشعوب القديمة . ولعل أهم هذه الظروف الجغرافية من وجهة نظر علم الأجناس هي الموقع الجغرافي العام . ومظاهر السطح والتضاريس . ومميزات المناخ الرئيسية .

أما عن الموقع الجغرافي العام فإن فلسطين تطل على الساحل الجنوبي الشرقي للبحر الأبيض المتوسط لذلك لم يكن غريباً أن تتعرض للموجات البشرية إذا اضطربت في الركن الشرقي لهذا البحر . كما أنها تقع عند القرن الجنوبي الغربي « للهلال الخصيب » بين الصحراء وبين البحر من ناحية . وبين أكبر مراكز الحضارة القديمة في وادي النيل وحوض دجلة والفرات من ناحية أخرى . أي أنها بحكم موقعها كانت معبراً طبيعياً للشعوب المتحضرة القديمة ، بين البحر الأبيض المتوسط والخليج الفارسي عبره قوافل التجارة وركاب البريد وجيوش

(١) انظر فيما يختصر بتأريخ أسفار العهد القديم وبنقد قيمتها كرجع على المقالين التاليين :

Driver, S.R. & Peake, A.S. Art. Bible, O.T., Ency. Brit., vol. 3, p. 501 ff. and Stewart, A. Art. Bible, Dictionary of the Bible. Ed. Hastings. J. Vo. 1, Sth Impression, 1906, p. 290.

الغزاة بين المتنافستين القديمتين « مصر وبلاد النهرين » فكان مقدرًا لها أن تتأثر
- من الناحية الجغرافية - بهذه الحركات العابرة للتجارة والمحارين . هذا إلى
أن فلسطين تقع بين البحر المتوسط والصحراء اللذين كانا المصدرين الرئيسيين
لشعوبها في التاريخ القديم . واللذين تجاذبا توجيهها الجغرافي على مر العصور
فجعلها جزءاً من العالم السامي القارى وقتاً ما . وضيعة في العالم الاغريقي الزوماني
وقتاً آخر . متجهة نحو العالم العربى أو متجهة - قسراً - نحو أوروبا في عهد
الصليبيين . ثم ها نحن نشهد اجتذابها نحو العالم العربى وتعرضها لليهود - الوافد
عبر البحار - في سهلها الساملى مرة أخرى (١) .

ننتقل الآن إلى الإلمام بطبيعة سطح فلسطين ، إذ أنه يلقي ضوءاً على
توجيهاتها الجغرافية نحو الداخل أو نحو البحر من جهة ، وعلى منافذ فلسطين
نحو العالم الخارجى ومصادر الهجرات ومنازلها في فلسطين من جهة أخرى .
يمتاز سطح فلسطين بتوازي ثلاثة مظاهر تضاريسية كبرى في اتجاه شمالي
جنوبى وهى : سهل ساحلى يزداد اتساعاً كلما اتجهنا نحو الجنوب . ثم هضبة متقطعة
متوسطة الارتفاع تعتبر امتداداً جنوبياً لجبال لبنان الغربية ، يعترضها منخفض
سهل مرج ابن عامر من الغرب إلى الشرق . ثم منخفض الغور ويجرى فيه
نهر الأردن الذى ينحدر منخفضاً تحت سطح البحر إلى أن يصب في البحر الميت
(١٢٩١ قدماً تحت سطح البحر) ، ثم يرتفع المنخفض ثانية - وإن كان لا يزال
غائراً بالنسبة للحافتين الشرقية والغربية - في منخفض وادى العرابة حتى خليج
العقبة .

تنقسم المرتفعات الوسطى إلى قسمين : هضبة السامرة أو ساماريا في
الشمال ويفضلها عن جبل الكرمل ممر مجدو ، وعن هضبة يهوذا في الجنوب
منخفض اللبان . وهضبة يهوذا أو يهودية في الجنوب ، وهى هضبة انكسارية

(١) فيما يختص بمزايا الموقع الجغرافى لفلسطين انظر بصفة خاصة :

Smith, G.A. The Historical Geography of The Holy Land, London 1948.
pp. 3-20. Ghallab, M.E.S. Constant and variable Factors in the Interrelations
between the Judaea Plateau and the Maritime Plain of Palestine, Bull. Soc. Roy.
de Geog. d'Eg. XXIV, 1951,

مستطيلة تنهى من الشرق والغرب بمدرجات انكسارية تتتابع في سرعة وعنف من الشرق نحو الغور بينما تتدرج في سهولة ويسر بمدرجات عريضة نحو الغرب، إلى تلال شفيلاه التي تعتبر مقدمات الهضبة للصاعد من السهل الساحلي. هذا إلى أنه يفصل هضبة يهوذا عن هذه التلال وادي انكسارى طولى يمتد من شمال الشمال الشرقى إلى جنوب الجنوب الغربى. هذا الوادى كان بمثابة أرض حرام بين المملكة العبرية وبين اتحاد المدن الفلسطينية في التاريخ القديم.

وتمتاز هذه الهضبة بأنها جيرية تأثرت بعوامل التعرية والتحات فقسمتها السيول والأنهار الفصلية العميقة إلى عدة أقسام صغيرة ومنفصلة بعضها عن البعض. ولقد استطاعت فلسطين جنوب جبل الكرمل على الأقل أن تتميز بينيتها وتضاريس سطحها العامة وتصبح وحدة جغرافية منفصلة يفصلها نهر الأردن ومنخفض البحر الميت ووادى غرابة العميق عن هضبة شبه جزيرة العرب. ويفصلها جبل الكرمل عن سهل عكا في الشمال كما يفصل مرج ابن عامر هضبة السامرة ويهوذا عن جبال لبنان شمالاً.

وعملت مظاهر السطح على تقسيم فلسطين إلى اقليمين كبيرين هما الساحل والهضبة ولكل مميزاتهما الطبيعية والبشرية الخاصة. ولكل توجيهه الجغرافى الخاص. ولكل - في تاريخ فلسطين العام دوره الخاص. فالسهل الساحلى مفتوح أمام المؤثرات البحرية. والثانية منعزلة بمنأى عن هذه المؤثرات، أو على الأقل بطيئة التأثير بها. وجهة الأول على البحر. والثانية إلى الصحراء التي هي امتداد طبيعى لها. ليس هذا فحسب بل أنها أتت على الهضبة ومزقتها إلى أوطان صغيرة متعددة منعزلة - إلى حد ما - بعضها عن البعض الآخر، أصحح لأن تكون منازل لقبائل متفرقة منها أن تكون وطناً لشعب واحد (١).

وأخيراً فإن فلسطين تقع بين اقليمى البحر الأبيض المتوسط والصحراء. عند العروض التي تتذبذب عندها الرياح وتتنازعها مؤثرات الرياح التجارية الشمالية من جهة. والرياح العكسية الاعصارية الغربية من جهة أخرى. ومن

(١) انظر بصفة خاصة

المعروف. أن منخفضات أعاصير الرياح العكسية الغربية تمتاز بالنبذبة وعدم الانتظام ، فهي تختلف من حيث القوة ومدى الاتساع من عام إلى آخر.. فتفاوت كمية الأمطار من وقت إلى آخر ، بل من شهر إلى آخر في نفس الفصل المطر . وقد لاحظ الأستاذ هنتنجتون تفاوتاً كبيراً في كمية الأمطار الساقطة على القدس بلغ ٤٠٪ زيادة أو نقصاناً عن المتوسط . وذلك في الربع قرن الواقع بين عامي ١٨٨٢ - ١٨٩٩ . ثم في الفترة بين عامي ١٩٠٣ - ١٩٠٩ .. وإذا فحصنا ملخص حالة سقوط المطر في فلسطين في الربع قرن الأخير بين عامي ١٩٢٦-٢٧ ، ١٩٤١ - ٤٢ فإننا نجد التفاوت ظاهراً بشكل واضح . في وهلما مثلاً - على الساحل - بلغ التفاوت من ٣١٤ر٧ مم في عام ١٩٣١/٣٢ إلى ٨١٩ر٩ مم في عام ١٩٣٨ / ٣٩ . وفي نابلس - على الهضبة - نجد التفاوت أبلغ مدى . من ١٠٢٤ر٤ مم عام ١٩٢٨ / ٢٩ إلى ٣٣٩ مم عام ١٩٣٢ / ٣٣ . هذه الملاحظات الحديثة تميل بنا إلى الاعتقاد بأن اختلاف سقوط الأمطار من عام إلى آخر أو من عقد إلى آخر كان أقرب إلى الشذوذ عن مستوى عام ثابت منه إلى تغير كبير في المناخ يصل إلى حد الجفاف من طرف إلى زيادة الأمطار من طرف آخر (١) .

من هذا نستطيع أن نتصور حالة شمال شبه جزيرة العرب المتاخمة للحدود فلسطين الجنوبية والشرقية ، والتي تعمرها قبائل البدو ترعى الأنعام على الكلاً الذي ينمو بعد فصول الأمطار القليلة في الشتاء ونستطيع أن ندرك أن هذه القبائل تعتمد على أمطار قد لا تكفي لنمو الكلاً ، وأنها ذات حساسية شديدة لأدنى تغير في كميات المطر المتساقطة . فهي قاعة مقيمة في منازلها ما دام هناك مطر يكفي لنمو الكلاً ، ولكنها تضطرب ويتولاها القلق إذا ضعفت الأعاصير

(١) لا تزال نظرية تغير المناخ في العصور التاريخية في الشرق الأدنى موضع جدل كبير بين علماء الجغرافيا والآثار وقد عالجتها في رسالة لم تنشر بعد وأشرنا إليها مع ذكر المراجع في مقالين :

Ghallab, M.E.S. Constant and Variable Factors in the Inter-relations between Judaea Plateau and the Maritime Plain in Palestine. Bull. Soc. Roy. Geog. Eg. t. XVIII, 1950 pp. 201-225.

Ghallab, M.E.S., The Settlement of the Negeb. Bull. Desert Institute, Vol. 3, 1953.

وقلت الأمطار وانكشبت مساحة الكلاً في عدة مواسم متتالية . عندئذ تصبح موارد الصحراء الطبيعية غير كافية لإطعام أهلها . فتفيض بهم ولا يجدون مفرأ من الهجرة إلى بلاد الهلال الخصيب المجاورة (١) .

هكذا كانت فلسطين - وغيرها من بلاد الهلال الخصيب - معرضة لهجرات البدو النازلين على أبوابها . والذين يتسللون فرادى وجماعات تسلا سلمياً ما دامت هناك حكومة قوية في داخل البلاد . والذين يترددون في غزوها وقهرها إذا ظهرت عليها بوادر الضعف . وهذا ما نتصوره سبباً للهجرات السامية التي انبعثت من الصحراء من زمن إلى آخر . والتي أصابت فلسطين كما أصابت جيرانها . والتي كانت مسئولة إلى حد كبير عن تعمير فلسطين منذ بداية عصر المعدن .

٢ - إنسان ما قبل التاريخ في فلسطين :

الآن وقد استعرضنا ظروف البيئة الجغرافية والموقع الجغرافي وهي التي كان لها أثر مباشر في توجيه الهجرات البشرية إلى فلسطين والتي قسمت هذا القطر إلى أوطان صغيرة لمختلف القبائل والشعوب . نبدأ دراسة قصة تعمير فلسطين بالإنسان ولا بد لنا هنا من البدء بأقدم العناصر البشرية أو شبه البشرية . في الوقت الذي بدأ فيه النوع البشري بعد حلقة التطور من الطور الشبيه بالإنسان إلى طور نوع الإنسان العاقل الذي ننتمي إليه (٢) .

أظهرت أعمال البحث عن الآثار الإنسانية القديمة . عدداً من الهياكل والعظام قرب بحيرة الجليل وفي سفح جبل الكرمل . وهذه الهياكل تنتمي إلى إنسان نياندرتال وهي لا تختلف كثيراً عن مثيلاتها الأوروبية وترجع حسب عمر الطبقات التي وجدت بينها إلى عصر البلايوسين الأوسط . أي في الفترة التي تقابل أواخر الفترة الغير جليدية الأخيرة . وقد وجدت هذه الهياكل مطمورة بين بريشيا لافالوازية مستيرية .

(١) انظر بصفة خاصة :

Toynbee, A.T. A Study of History, vol. II, pp. 16-17, London 1934.

(٢) عن تطور الإنسان وعلاقته بالمصور الجيولوجية والمصور الحجرية القديمة انظر على

سبيل المثال لا الحصر

Howells, W., Mankind so Far. (1947) & Le Gros Chark, History of the Primates (1952).

أما من الناحية الجنسية فيمتاز إنسان نياندرتال الذي وجد في مغارة السخول بأن طوله يتراوح بين ١٧٣ - ١٧٩ سم . وأنه في هيكله العظمى وسط بين الإنسان الحديث العاقل وإنسان نياندرتال الأوروبي . وربما كان أقرب إلى الأول منه إلى الثاني . على أنه وجد في مغارة الطابون هيكل عظمى لامرأة من جنس النياندرتال (بمعنى الكلمة) في الطبقات السفلى . بينما وجد هيكل لشاب من نوع الإنسان العاقل ويشبه سلالة الكرومانيون الأوروبية في الطبقات العليا . ولاشك أن وجود هذه الهياكل المختلفة التي تمثل مراحل متتابعة لتطور الإنسان ، من النوع النياندرتال إلى النوع العاقل ، يدعو إلى الدهشة ويشير إلى عراقة هذا القطر في العمران البشرى (١) .

قبل أن تنتقل إلى عصر بداية المعدن لا بد أن نشير إلى فجر العصر الحجري الحديث وهو العصر الذي بدأ فيه استقرار الإنسان العاقل في أوطانه المختلفة والذي بدأ فيه الإنسان ينتقل من مرحلة الجمع والالتقاط أو الصيد إلى حياة الرعي والزراعة . وقد ظهر في فلسطين في ذلك العصر حضارتان . تدعى الأولى بالحضارة الغاسولية في هضبة يهوذا . وتمتاز بأنها كانت حضارة رعوية . والأخرى بالحضارة الطاحونية وفيها بدأت الزراعة في الظهور إلا أن الحضارة الناتوفية وهي آخر الحضارات الحجرية القديمة العليا أو الحجرية الوسطى (وتقابل في مصر حضارة مرمدة بني سلامة وما قبل الأسرات) فإنها كانت فيما يبدو حضارة زراعية استقرارية إلى حد كبير .

(١) يرى كيث وماككاون أن إنسان جبل الكرمل الذي يجمع بين خصائص إنسان نياندرتال والإنسان العاقل، ليس إلا مظهراً لنوع إنساني في مرحلة التطور نحو الإنسان العاقل بمعنى الكلمة . وأنه انفصل عن النوع النياندرتالي في أواخر البلايستوسين بعد ظهور إنسان نياندرتال فعلاً . ولذلك احتفظ ببعض خصائصه. مثل الفك الغليظ البارز والجهة المتقهقرة والانكفاء إلى الأمام . هذا ويرى بعض الكتاب أن إنسان الكرمل خلاصى بين إنسان نياندرتال، وإنسان كرومانيون .

انظر فيما يختص بالرأى الأول "Keith, Si A. "A Report on the Galilee Skull in Turville-Petre" F. Researches in Prehistoric Galilee ; also Keith, Si A. & McCown, T.W. B.A.S.P. vol. 13, 1937, pp. 5-15 ; also "Mount Carmel Man" etc. Early Man, Phila. 1937, pp. 41-52.

وفيما يختص بالرأى الثاني Coon, C.S. The Races of Europe, New York, 1939. pp. 25-26. Also Davison, D. Men of the Dawn, London, 1944, pp. 200 ff.

وقد عثر على نحو ٢٠٠ هيكل عظمى من مستويين مختلفين يرجعان إلى العصر الحجري الأوسط والحضارة الناتوفية المتأخرة وقد وجد أن الإنسان صاحب الحضارة الأخيرة يمتاز بقصر القامة طوله ١٥٢ - ١٦٠ سنتيمتر . ولا يزيد صاحب الحضارة الأخيرة هذه عن ١٦٢ سم كما يمتاز بالرأس الطويل الضيق (النسبة الرأسية ٧٢ - ٧٨) وأنه بصفة عامة أقرب إلى مميزات سلالة البحر الأبيض المتوسط ودقيق العظام رقيقها ومن الصعب التمييز بين هياكل ذكوره واناثه . وأنه متأثر بالسلالة شبه الزنجية القريبة من السلالة الدرافيدية^(١) .

٣ - عصر بداءة المعدن : الهجرات السامية وأثرها في تعمير فلسطين :

قبل أن نتحدث عن عصر البرونز الذي شاهد ازدهار فلسطين من الناحية الحضارية بعد هجرة القبائل السامية والايجية إليها والعصر الذي ازدادت فيه العلاقات بين الحضارات النهرية وكثر ارتياد أفرادها للمعبر السوري . ومن ثم ازداد اتصال فلسطين بمراكز الحضارات الكبرى . وازداد تأثرها بها . قبل أن نتحدث عن ذلك العصر يصح أن نعرض للعصر السابق له ، الذي يطلق عليه اسم عصر النحاس ، في هذا العصر كان يعمر فلسطين قبائل يطلق عليها اسم الشعوب قبل السامية وللأسف ليس لدينا أدلة كافية عنهم ، اللهم إلا بعض إشارات في العهد القديم وبعض جماجم بشرية ترجع إلى ذلك العهد .

يحدثنا العهد القديم من الكتاب المقدس عن تلك الشعوب التي سبقت بني اسرائيل إلى فلسطين وأطلق عليها أسماء عديدة لعلها أسماء قبائل وجماعات متفرقة كانت تسكن هذا القطر مثل النغاليم والعناقيم والريفائيم^(٢) . هذه الشعوب التي كانت تسكن الكهوف وتتخذ من الجبال بيوتاً ومما يعرشون . وقد أيدت الحفائر الحديثة رواية التوراة من أن شعوباً سابقة للساميين كانت تعمر فلسطين . إذ وجدت آثارها في الخليل وغزة وتل تعانق واريحا

(١) انظر Keith, Sir A. (1937) op. cit. & Keith, Si A. & MacCown, F.W. B.A.S.P. (1937) op. cit.

(٢) آثرنا نقل أسماء القبائل السامية كما وردت في النص العبري . مع العلم بأن نهاية « ايم » في آخر الكلمات هي علامات الجمع . وإذا شئنا تعريبها قلنا النغاليون . والعناقيون . والريفائيون .

ومجدو . ويهمننا هنا أن نستعرض الصفات الجنسية التي يمتاز بها هؤلاء القوم .
ويساعدنا على تعرف هؤلاء العثور على ٢٧ جمجمة عند مدينة مجدو ترجع إلى العصر
النحاسي وما بعده أو إلى ما قبل الألف الثالث السابقة للمسيح . كما وجدت
خمس جماجم أخرى ترجع إلى أوائل عصر البرونز أي حوالي عام ٢٦٠٠ ق. م .
وتمتاز هذه الجماجم بالرأس الطويل الصغير من طراز سلالة البحر الأبيض المتوسط
والأنف البارز ذى القنطرة المتصلة بالجهة . كما أن بروز الفك لم يكن غير شائع
في هذه الجماجم .

إلى جانب تلك الشعوب التي تنتمي إلى سلالة البحر الأبيض المتوسط
وجدت في فلسطين جماجم ترجع إلى السلالة الكبادوشية ذات الرأس العريض .
تلك السلالة التي كانت فيما يبدو تكون شعب الحثيين الذي امتدت امبراطوريته
من آسيا الصغرى إلى مرتفعات لبنان وربما وصل إلى هضبة يهوذا لفترة قصيرة .
ولعل هذا يفسر التقاطيع الحثية الغليظة التي تميز بعض أفراد شعب اسرائيل
كما سنرى فيما بعد .

غير أن هذه الشعوب قبل السامية ما لبثت أن اندمجت في الشعوب السابقة
الايجية التي هاجرت إلى فلسطين . وإذا كانت الصبغة السامية هي الغالبة على
فلسطين في أى عصر من عصور التاريخ العام فانه ينبغي لنا أن نتبع هذه
الهجرات وأن نشير إلى الشعوب التي حملتها إلى فلسطين .

يحسن بنا أن نقرر بادية ذى بدء أن كلمة سامى مثل كلمة حامى أو آرى
كلها تعبيرات ثقافية لغوية ، وليس لها أى دلالة جنسية ، فليس هناك جنس
أو سلالة سامية . كما لا يوجد جنس حامى أو آرى . وما كانت اللغة دليلا على
تمييز جنس أو سلالة من أخرى (١) . وتبين صدق هذه الملاحظة من أن
الساميين يشملون - فيما يشملون - سلالات تمتاز بالرأس الطويل وأخرى
بالرأس العريض ، وجماعات تمتاز بالقامة النحيلة والتقاطيع الدقيقة . وأخرى
تمتاز بالقامة القصيرة المكتنزة والتقاطيع الغليظة . هذا غير احتكار اليهود لوصف

(١) قارن هذا بما ورد عن الساميين في المرجع التالى :

Cook, S.A. Camb. Anc. Hist. Vol. I 1923, CL. V, pp. 226-237.

السامية في أوروبا وأمريكا في الوقت الحاضر . على ما بين جماعاتهم من تفاوت في المميزات الجنسية كما سنرى فيما بعد .

وأما عن الوطن الأصلي للساميين أو إقليم تكوينهم الأصلي . فإنه لم يتحقق بعد . فالعالم رينان يرى أن وسط شبه جزيرة العرب كان وطن الساميين الأول . بينما جوبيري يقترح البادية المتاخمة لغرب العراق (١) . ونحن نجد صعوبة في تقبل وسط شبه جزيرة العرب كمبعث للهجرات السامية . إذ أن الساميين الأول لم يعرفوا الحمل وهو وسيلة المواصلات السريعة التي تصلح لقطع مسافات طويلة في الصحراء إلا حوالي القرن الثالث عشر قبل الميلاد . ولم يكن لديهم من دواب النقل إلا الحمار . وهذه الدابة لا تقوى على قطع مسافات طويلة في الصحراء أما عن الفرض الآخر فربما كان أقرب إلى الحقيقة . وتؤيده روايات العهد القديم عن هجرة سيدنا إبراهيم ولوط عليهما السلام من ضفاف دجلة إلى الأردن . كما يؤيده أيضاً تاريخ هجرات الكنعانيين والعموريين والآراميين وحركاتهم صوب الجانب السوري (٢) .

وربما حق لنا أن نتساءل إذا كانت القبائل السامية ليست من سلالة واحدة ولا دليل في هذا على أنه لا يقوم ما يعترض به على وجود عدة أصول للساميين بدلا من أصل واحد . فلماذا نتقيد بنظرية الأصل الواحد للساميين إذن ؟ ومنهم ذوو الروثوس العريضة ومنهم ذوو الروثوس الطويلة ومنهم من استعرضت رؤوسهم من سلالة البحر المتوسط ومنهم من هو أقرب إلى السلالة الأرينية . بل منهم من حمل بعض الشبه بالسلالات الشمالية .

الساميون قبائل انبعثت من صحراء العرب شمالها أو وسطها من سلالات جنسية مختلفة ولكنها تتفق في أنها تتحدث لهجات متقاربة تنتمي إلى أسرة لغوية واحدة وهي الأسرة السامية . هذه القبائل تظهر في رسوم قدماء المصريين

Barton, Semitic and Hamitic Origins.

(١) انظر بصفة خاصة

(٢) من الناحية الأثروبولوجية انظر Barton, Semitic and Hamitic Origins.

Riply, W. The Races of Europe, London 1920, CL. XIV,

pp. 373 ff. also Keane, A.H. Man, Past & Present, Chapt. XIV.

على هيئة رجال ونساء يلبسون الصوف الملون . على عكس قدماء المصريين الذين كانوا يلبسون التيل الأبيض . حاسرى الروثوس لهم شعر أسود وأنوف شماء أو معقوفة . تسوق أنعامها من الأثان وقطعان الماعز والضأن . وإذا دققنا النظر فى بعض هذه الرسوم لرأينا بعض أدوات الصناعة البسيطة مثل منفاخ الموقد ولا عجب فقد حمل هؤلاء الناس المعدن وحضارته إلى بلاد الهلال الخصيب فى القرن الرابع عشر ق. م .

والآن ستعرض هجرات الساميين الكبرى (١) واحدة بعد أخرى . حدثت أول هجرة سامية فى الألف الرابعة قبل الميلاد . وقد حملت هذه الهجرة فيما حملت - الكنعانيين إلى المعبر السورى . وقد احتل الكنعانيون السهل الساحلى لفلسطين ولبنان كما أنهم توغلوا فى السهول الداخلىة فى فلسطين وسوريا ورابطوا على حافة الصحراء شرقى سوريا وجنوبى فلسطين . أما جبال لبنان ومرتفعات يهوذا والسامرة فإنها تجتذب إليها كثيراً من الكنعانيين الذين اكتفوا باحتلال بعض المواقع الحصينة على مداخل الوديان التى تنبع من الهضبة وتنحدر إلى السهل وحافات يهوذا المتقطعة . أما مركز حضارتهم فكان السهل الساحلى وتلال شفيلاه . وقد ظل العنصر الكنعانى هو العنصر السائد فى سوريا وفلسطين خلال الألف الثالثة ق. م .

أما الهجرة الثانية للساميين فقد حدثت فى الألف الثانية ق. م . ويبدو أن هذه الفترة كانت فترة اضطراب فى القبائل والشعوب السامية وغير السامية . أما الأولى فقد أرسلت العموريين شرقاً إلى بلاد بابل وبين النهرين وغرباً إلى سوريا . وفى نفس هذه الفترة انبعثت من هضبة إيران وصحارى وسط آسيا شعوب غير سامية مثل الكاسيين الذين ربما انضموا إلى التتر والترك . وهؤلاء غزوا بلاد ميديا وعيلام وبابل . كما خرجت طلائع الحيثيين من هضبة أرمينيا

(١) عن الهجرات انظر :

Kroeber, A. Anthropology, New-York, 1933 pp. 451 ff.

Keane, A.H. Op. Cit. pp. 491 ff. also Myres, G.S. Dawn of History. London, 1910, ch. V ; Coon, S. Op. Cit. pp. 432-44.

وآسيا الصغرى . إلى بلاد ما بين النهرين من جهة ، ومرتفعات المعبر السورى من جهة أخرى . وهكذا ابتداء اختلاط السلالات فى شرق البحر الأبيض المتوسط كما سنلاحظ فيما بعد .

أما الهجرة الثالثة فقد حملت عنصرين متميزين إلى فلسطين . الآريين والعبريين الذين بدأوا يحلون محل الكنعانيين فى محلاتهم القليلة فى هضبة يهوذا . وقد كان القرن الرابع عشر ق. م. بدوره عصراً آخرأ من عصور الاضطراب بين الشعوب والقبائل القديمة . يطلق عليه أحد عصور الهجرات الكبرى . شهد هجرة العبريين والآراميين من جهة ، واندفاع الحيثيين نحو الجنوب من جهة أخرى . كما شاهد طوفان القبائل الايجية فى شرق البحر الأبيض المتوسط وخروج الفلسطينيين القدماء Philistines بقطعانهم وعرباتهم التى تجرها الثيران وسفنهم من جزر كريت وبحر ايجيه إلى فلسطين من جهة ثالثة .

أما الهجرة الرابعة فقد خرجت فى القرن السابع قبل الميلاد . من شمال شبه جزيرة العرب ونستطيع أن نطلق على أصحابها اسم طلائع العرب وبدأت تلك الطلائع فى التسلل نحو شرقى فلسطين وجنوبها . وهذه شملت قبائل موآب وايدوم ومدين وعمون . وهذه القبائل كانت من أحلاف العبريين تعيش على أطراف الصحراء فى جنوب فلسطين وشرقى الأردن . وقا. اشتد ساعد بعض هذه القبائل بسبب ظروف التجارة بين الشرق والغرب مما مكّنهم من تأسيس مملكة الديدوميين ثم مملكة النبط أو الأنباط حوالى القرن الرابع قبل الميلاد فى الاقليم الذى يطلق عليه اسم اقليم النجب الآن (١) .

وأخيراً انبعثت الهجرة العربية الإسلامية فى القرن السابع الميلادى تحمل ديناً جديداً وثقافة جديدة قدر لها أن تراث التراث الثقافى حقبة طويلة من التاريخ . بعد هذا العرض السريع للهجرات السامية التى انبعثت من شبه جزيرة العرب إلى الهلال الخصيب ننتقل إلى بحث سكان فلسطين فى العصور التاريخية بشىء من التفصيل .

Ghallaab, M.S. 1951. Op. Cit.

(١) انظر :

إن معلوماتنا عن سكان فلسطين في العصور التاريخية مستقاة من المصادر الآتية :- رسوم وكتابات قدماء المصريين وبابل وآشور من ناحية - وما ورد في سفر التكوين من العهد القديم من ناحية أخرى . وإن كانت الأولى - ولا سيما الخاصة بآثار قدماء المصريين - قد نقلت بأمانة أشكال القبائل والشعوب القديمة والتي اتصل بها المصريون فإن الثاني قد ترك لنا أثراً مكتوباً له مكانته الدينية والتاريخية التي لا يمكن إنكارها هذا إلى الآثار المادية التي تركها سكان فلسطين القدماء . وعلى هذا نستطيع أن نلقى ضوءاً على الحليط الجنسي الذي عمر فلسطين فوجاً وراء فوج في تاريخها القديم . وقد أشرنا إلى الشعوب غير السامية التي وجدها العبريون عندما هاجروا إلى أرض الميعاد . ولا بد هنا من أن نضيف أن العبريين لم يكونوا أول شعب سامي هاجر إلى فلسطين فقد سبقهم الكنعانيون الذين احتلوا السهل الساحلي - كما قدمنا - أما الهضبة فقد احتلها الحيثيون وشعب حربي آخر يدعى بالعموريين . وهنا نقابل أول مشكلة من المشاكل الجنسية في فلسطين القديمة : من هم العموريون ؟ بل من هم الحيثيون ؟ لقد ترك الأخيرون أثرهم في تاريخ الشرق القديم ولكن بالرغم من هذا فقد ظل أصلهم مجهولاً^(١) ونستطيع أن نتصورهم شعباً حربياً شديد المراس احتل هضبة الأناضول وأرمينيا واندفع منها محتلاً لمرتفعات الانصارية ولبنان ويهوذا حاملاً حضارة الحديد الذي أكسبهم قوة إلى قوتهم . وقد ظلوا زمناً طويلاً مسيطرين على الطرق الجبلية بين خليج الاسكندرونة وأعلى دجلة والفرات يهددون الحضارات النهرية المستقرة في الشرق الأدنى . أما عن مميزاتهم الجنسية فنستطيع أن نقرر أنهم كانوا يتصفون بالرأس العريض والأنف الضخم المعقوف . ولعل هذه الصفات هي التي أدت بالعالم فون لوشان إلى أن يعتبرهم من أصل أرمني . وقد دعت أيضاً - وشايعه في ذلك بعض الكتاب - إلى أن يفترض اختلاطهم بالعبريين في هضبة يهوذا وتوريثهم إياهم الصفات الأرمينية من التقاطيع الغليظة والرأس الكبير العريض والأنف المعقوف والقوام

(١) فيما يختص بأصل الحيثيين وتطور حضارتهم انظر على سبيل المثال :

Hogarth, D.G. The Hittites, of Asia Minor, Cam. Anc. Hist. Vol. I 1951.

Forrer, E.O. The Hittites in Palestine Pal. Exp. Quart. St. 1937 pp. 100.

الربعة الذى يميل إلى أن يكون ضخمة الهيئة (وهذا هو طابع جمهرة يهود شرق أوروبا فى الوقت الحاضر) . إلا أن هذا الاستطراد المنطقى نتيجة فرضية من الفروض وليس قائماً على أساس تاريخى إذ افترض فون لوشان أن شطراً من يهود شرقى أوروبا قد اكتسب تلك الصفات الغليظة من الشرق الأدنى وأن الحِيثيين من أصل أرمنى وكلاهما لا أساس له من التاريخ (١) .

هذا عن الحِيثيين . أما عن العموريين فقد اختلفت الآراء فى شأنهم اختلافاً كبيراً . ففريق من الكتاب يراهم من المجموعة السامية ، وفريق آخر يفترض أنهم من السلالة الشمالية (النوردية) والواقع أن قدماء المصريين لونا بشرتهم فى صورهم باللون الأصفر كما جعلوا لهم لحي مسترسلة وأنوفاً معقوفة . وقامات طويلة مما قد يوحي بوجود أثر نوردى فى دمائهم . وقد ذهب فون لوشان إلى أبعد من هذا وربط بينهم وبين التحنو الذين كانوا يرابطون على حدود مصر الغربية . إلا أننا أميل إلى اعتبارهم من المجموعة السامية لأنهم كانوا يتكلمون السامية . وأميل إلى اعتبارهم سلالة حربية من أبناء عمومة الكنعانيين يعيشون على ذرى مرتفعات يهوذا وتلال شفيلاه بينما يعيش الكنعانيون فى السهل الساحلى ولا نجد فى صفاتهم الجنسية ما يحول دون سابقهم . فليست السامية جنساً من الأجناس ولا سلالة من السلالات بل هى ثقافة ومزاج فكرى امتازت بها مجموعة من البشر فى الشرق الأدنى . واستطاعت أن تصهر فى بوتقتها وتمثل فى مختلف العناصر والسلالات التى اتصلت بها أثناء تجوالها فى شمال شبه جزيرة العرب .

نستطيع أن نقول أن الكنعانيين كانوا أهم شعب صادفه العبريون عند دخولهم فلسطين أول مرة فى القرن السادس عشر ق. م. بل نستطيع أن نذهب أكثر من ذلك ونقول أن بنى كنعان كانوا الشعب الذى تمثلته السلالة الباقية الأساسية لسكان فلسطين حتى الوقت الحاضر .

(١) انظر Coon ، حاشية صفحتى ٤٣٤ - ٤٣٥ ، وانظر كذلك :

Oesterly W.O.E. & Robinson, T.H. A History of Israel, Oxford. 1932, pp. 30 & 40 ff.

والكنعانيون هم المجموعة القريبة من الساميين الذين أنشأوا معظم المدن الفلسطينية في عصر البرونز . والتي امتازت بميزات خاصة يمكن تلخيصها في كلمة الاكروبول . إذ كانت حصوناً منيعة فوق ربي وتلال مرتفعة تشرف على طريق أو أكثر أو واد سحيق . يهرع إليه الفلاحون إذا حزبهم الأمر . كما كان الكنعانيون هم الذين قطعوا النباتات والأشجار من الهضبة ومهدوا الأرض للزراعة مستعينين بوسائل رى بدائية . وهم باختصار الذين مهدوا للعبريين سبيل الاستقرار في فلسطين (١) .

والغريب أن قوماً هذا شأنهم وخطرهم في تاريخ فلسطين ، قد أخرجهم سفر التكوين من حظيرة الأمم السامية ووضعهم في زمرة أبناء حام (سفر التكوين الفصل ١٠ ، آية ٦ - ١٩) . وهذا أمر راجع إلى عامل العداء المستحكم بين بني اسرائيل ومن سبقهم إلى تعمير فلسطين من كنعانيين وعموريين . هذا العداء الذي حملوه أيضاً ووجهوه إلى الفلسطينيين الذين احتلوا الساحل فيما بعد .

وقد عاصرت أول هجرة عبرية بقيادة إبراهيم ولوط عليهما السلام من جانب العراق الغربي وإلى نهر الأردن هجرة سامية أخرى من الشمال الشرقي هي هجرة الأراميين الذين استوطنوا الغوطة وجعلوا دمشق عاصمة لهم . الذين توغلوا إلى مرج ابن عامر وشمال السامرة وكونوا فيما بعد جانباً من مملكة بني اسرائيل ولقد سادت لغتهم في شمال فلسطين في أوائل العصر المسيحي ومن الطريف أن نذكر أن السيد المسيح عليه السلام بشر بتعاليمه باللغة الأرامية وليس بالعبرية كما قد يتبادر إلى الذهن .

قاد إبراهيم ولوط عليهما السلام - فيما تروى التوراة - القبائل العبرية إلى شرق الأردن ثم عبر بهم منخفض العرابة جنوب البحر الميت وحط رحاله جنوب هضبة يهوذا بالقرب من خبرون (الخليل) وكانت هذه القبائل العبرية التي دخلت في شكل سلمى أرض فلسطين تعيش في اقليم قليل السكان يجمع

(١) انظر :

Olmstead, A.D. A History of Palestine, 1931. Also note by Albright,
Westminster Atlas, Philadelphia, 1945, p. 24.

بين مميزات البيئة الرعوية من ناحية ومقومات الحياة الاستقرارية من جهة أخرى. هضبة تغطيها الأعشاب والأحراش وغابات الزيتون والحميز وأشجار الكروم . وقد عاش إبراهيم وقومه حياة رعوية تحت نظام بطرقى . ثم بالتدرج تحولوا إلى نصف رعاة ثم زراع وقد وصف العهد القديم حياة العبريين الأول في سفر الخروج وسفر القضاة ومن الممكن أن نعتبر إبراهيم وقومه طلائع العبريين في فلسطين . أما هجرة بني اسرائيل في القرن الرابع عشر ق. م. فقد جاءت عبر نهر الأردن تجاه اريحا . ولم تأت هجرة سلمية تتسلل دون أن يشعر بهد أحد كهجرة إبراهيم وقومه . بل حملة حربية بقيادة يوشع وربما صاحبها حملة مشابهة من الجنوب بقيادة موسى عليه السلام. فهؤلاء أيضاً لم يدخلوا بلاداً عامرة بالسكان ولذا لم يلقوا مقاومة ذات قيمة . إذ أن غالبية بني كنعان كانت تسكن السهل وتلال شفيلاه التي لم يقهرها بنو اسرائيل إلا في فترات محدودة من تاريخهم إبان حكم سليمان عليه السلام (حوالى 1000 ق. م.) .

أما عن مميزاتهم الجنسية فقد لاحظ Coon أنهم ينتمون إلى سلالة البحر المتوسط السمراء مثل غالبية العرب الشماليين . وتدل الهياكل العظمية الباقية في آثارهم على وجود نسبة كبيرة من سلالة البحر المتوسط الكبادوشى التي تمتاز باستعراض الرؤوس ، ويوجدون في الوقت الحاضر في جنوب شبه جزيرة الأناضول . وهذا لم يمنع كما ذكرنا من قبل أنهم اتصلوا ببعض عناصر سامية سابقة كانت بذورها قد تأثرت بالشعوب السابقة للساميين . تلك العناصر التي سبقت بني اسرائيل إلى احتلال بعض المواقع الحصينة في يهوذا مثل العموريين الساميين والحِيثيين غير الساميين .

لعلنا نستطيع الآن أن نتصور هجرات العبريين على أنها كانت هجرات سلمية متفرقة تحت قيادة أفراد مختلفين أتت بشعوب مختلفة من الناحية الأثنولوجية وإن اتفقت في اللغة السامية اللهم إلا إذا استثنينا حملة يوشع وان هذه الهجرات حملت قبائل العبريين بنى عمومهم من الكنعانيين (اللغة العبرية فصيلة من اللغات الكنعانية) ولذلك لم يجدوا صعوبة في امتصاصهم وصبغهم بالصبغة العبرية من الناحية الثقافية . فالعبريون فيما رأينا لم يعدوا كونهم جماعات سامية انفصلت

من أبناء عموماتها من القبائل السامية الأخرى السابقة للعرب . وتميزوا في وطنهم
الجديد - هضبة يهوذا - بناحية دينية فريدة في نوعها من ذلك الحين . وهي
عقيدة التوحيد . وهي إيمان بإله واحد هو ياهويه أو جيهوفا . هم عبيده
وهو ربهم . ولعلمهم كانوا يتصورون أنه كان ربهم وحدهم إذ لم يحاولوا التبشير
بدينهم بين الأمم الأخرى . وبذلك تكونت لديهم عصبية دينية قومية خالصة
ميزتهم عن غيرهم من القبائل السامية من ناحية وعن غيرهم من الأمم والشعوب
غير السامية في التاريخ القديم من ناحية أخرى (١) .

٤ ... الهجرات غير السامية : عناصر فلسطين :

في نفس الوقت الذي دخل فيه العبريون فلسطين تقريباً من الشرق بقيادة
يوشع في القرن الرابع عشر قبل الميلاد . كانت شعوب شمال شرقي البحر الأبيض
المتوسط تضطرب اضطراباً عنيفاً تحت هجمات القبائل المندفعة من وسط آسيا
وشرق أوروبا . وكان من نتائج ذلك أن انهارت الحضارة المينوية وتشتت
شعب كريت وجزر بحر ايجه تحت ضغط تلك الشعوب . ويشير رمسيس الثالث
إلى حركة هذه الشعوب في نقوش وجدت في مدينة حابو وفي بردية هاريس
الكبرى إذ ورد فيها النص التالي « كانت الجزر مضطربة غير مستقرة لم تقف
في وجه أهلها دولة (يقصد شعوب البحر) من نخسيتا (كبودوشيا) وكيري
(خليج اسوس أو الاسكندرونة) وتوقميش وألشيا ، فقد أتوا عليها جميعاً
بالتهريب والتحريق ثم حطوا رحالهم في (فلسطين) (٢) وذلك بعد أن فشلت
في هجومها على مصر . وهناك على السهل الساحلي استقرت تلك الهجرات
البحرية . وامتصت الحضارة الكنعانية واشتغلت بالزراعة . إذ أن بيثهم الجديدة

(١) انظر مختصراً عن العقيدة الموسوية وتكوين الشعب اليهودي وخصائصه الفكرية والثقافية في :

Turner, R. The Real Cultural Traditions, vol. I.

Ancient Cities, Chap. III, pp. 123-168 & III. — pp. 359

(٢) ورد هذا النص في : Peake & Fleurs; Horse & Sword, p. 56.

لم تشجع على الاستمرار في النشاط البحري لعدم وجود المرافق الطبيعية أو مواد الأخشاب اللازمة لبناء السفن بعكس الحال في ساحل فينقيا . كما أنهم احتفظوا بأسماء المدن الكنعانية القديمة وإن كانوا أتوا بنظام المدن المستقلة . إذ أنهم كونوا ممالك صغيرة في مدن عكرون وجات وأشدود وعسقلون وغزة وقد شمل توسعهم في بعض الأحيان حتى مدينة يافا وسهل شارون شمالا . أي أنهم سادوا في وقت ما السهل الساحلي من جبل الكرمل إلى حدود مصر الشرقية .

هكذا كان الفلسطين القدماء الذين أعاروا أسماءهم للبلاد بأكلها غرباء تماماً عن الشعوب السامية ، لم تطغ عليهم الثقافة العبرية وإن تمثلوا بعض عناصر الحضارة الكنعانية الخاصة باستثمار الأرض . وقد ظلوا في حالة عداوة مستمر مع بني اسرائيل مما حفلت بوقائعه أسفار العهد القديم ولا سيما سفر الملوك الأول والثاني . ولما لم تكن لديهم عصبية عنصرية دينية كالتى تكونت لدى العبريين ، في يهوذا فانهم كانوا على أتم استعداد لتمثل المؤثرات الحضارية التى يحملها التجار العابرون بسهلهم أو رسل الحضارات النهرية الكبرى أو الحضارات التى تفد إليهم من عرض البحر : إذ أن مدنهم كانت من أولى وأكثر مراكز الحضارة الهيلينية في شرق البحر الأبيض المتوسط .

ويؤيد أصلهم الايجي ما ورد في سفر التكوين الفصل الحادى عشر الآية الخامسة « ويل لشعب ساحل البحر شعب كريتيم - لعنة ياهويه تحقيق بك يا كنعان - أرض الفلسطينيين - سينزل عليك غضبي - لا يبق على ظهرك إنسان وعندئذ تتحول كريت إلى مراعى يجول فيها الراعى بقطعانه » وفي مواضع أخرى من هذا السفر تظهر أسماء كافتور أو كريت وكفيتو وقد يبدو من أول وهلة أن المسألة لا تعدو تشابه في الأسماء أو قد يبدو هناك تعارض بين هذا الأصل الكريتي وبين نتائج دراسة الأستاذ برستد لبردية هاريس الكبرى من ناحية ، ولصورهم في الآثار المصرية القديمة من ناحية أخرى . إذ أنهم يبدوون مرتدين فوق رؤوسهم خوذات على هيئة ريش الطيور مما كان يلبسه أهل ليفيا وكاريا . ولكن لا محل لهذا الاعتراض إذ لا تناقض بين الرأيين . فر بما هاجر

الفلسطينيون وهم من أهل كريت عن طريق ليفيا وكاريا في جنوب آسيا الصغرى حيث اقتبسوا شيئاً من حضارة تلك البلاد ثم اضطروا إلى الهجرة من الأناضول تحت ضغط البريجز أو الفريجين (١) .

٥ - العصر الاغريقي الروماني وبدء تشتت اليهود واستعراب فلسطين :

بعد أن انتهينا من عرض صورة موجزة لاستيطان فلسطين في التاريخ القديم انتهت بتكوين شعبين مختلفين بنى اسرائيل في هضبة يهوذا والسامرة والشعب الفلسطيني في السهول الساحلية . نعرض إلى الأحداث التي شتتت شمل اليهود كما سنعرفهم منذ الآن قسراً ثم اختياراً بعد أن خرجوا عن عزلتهم الدينية واتصلوا بحضارة الاغريق والرومان من ناحية والتي أدت إلى استعراب فلسطين وامتصاص القبائل العربية للعناصر الكنعانية من ناحية والعناصر الأصلية من ناحية أخرى .

عانى اليهود أول محنة قوية على يد بابل عندما قاوموا غزوها لهم فحاقت عليهم نقمة بختنصر سنة ٥٨٦ ق م . وانتقامه الفريد في نوعه إذ أسر خلاصة الشعب اليهودي وقادة الرأي فيه وكرائمه . أسرهم وحملهم قسراً إلى بابل وهناك فيما بين النهرين نشأت أول مستعمرة يهودية خارج يهوذا وعندما أعاد إليهم قرش حريتهم عام ٥٣٨ ق م . وخيرهم بين البقاء والعود إلى يهوذا ، فضل معظمهم البقاء في العراق وأنشأوا الجالية اليهودية التي تطورت بالديانة اليهودية تطوراً خاصاً في العراق . وهذه الجالية لا تزال مقيمة فيه حتى الآن .

أما الهجرات التالية لليهود فقد كانت عن قصد واختيار عندما اضطرت اليهود إلى الخروج عن عزلتهم والأخذ بأسباب الحضارة الهيلينية المستقرة في سهل فلسطين واتصلوا بالعالم الاغريقي بعد فتوح الاسكندر المقدوني . وفي هذه الهجرات أسسوا مستعمرات يهودية في مصر (ولا سيما في الاسكندرية) وسوريا

(١) عن أصل الفريجين انظر :

Hall, H.R. C.A.H. vol. II, Cambridge 1924, Ch. XII, p. 275-294
& 383 et sq. also Smith, G.A. The Historical Geography of the Holy Land,
London 1889, Chap. IX.

وآسيا الصغرى كما أسسوا مستعمرات أخرى في البلقان وفي سواحل البحر الأسود الشمالية . وقد كان لهذه الجالية اليهودية المؤسسة في إقليم خزرستان أثر كبير في تاريخ اليهودية إذ أنها صمدت لغزوات الهون والتتار واستطاعت أن تقنع قادة مملكة الخزر باعتراف اليهودية فدخل شعبهم في هذا الدين جملة في القرن الثامن الميلادى . وإلى هؤلاء الخزر ينتمى جزء كبير من اليهودية الأوروبية . هذا القسم الذى انتشر من منصب القوبلجا والقرم شمالاً وغرباً في شرق أوروبا .

أما الهجرة الثالثة فقد كانت في أعقاب امتداد الامبراطورية الرومانية ولا سيما بعد عام ٧٠ الميلادى عندما هدم الهيكل الثالث على يد الرومان ولم تقم له بعد ذلك قائمة . ولعل هدم ذلك الهيكل كان إيذاناً ورمزاً لانهاء دولة بنى اسرائيل في هضبة يهوذا . وفقدتهم تلك البلاد كموطن قومي فيما يقرب من ألفى عام . وربما كان السبب في خروج تلك الهجرة ازدحام يهوذا بالسكان على أثر استتباب الأمن والنظام الرومانى وتحسن مستوى الصحة العامة مما أدى إلى نقص الوفيات نتيجة لوقف الحروب والمشاحنات الداخلية بين اليهود ، أو بينهم وبين فلسطين من جهة ، ومغادرة المدن القديمة (الاوكروبول) المكتظة بالسكان والاقامة في السفوح المكشوفة الصحية من جهة أخرى . وقد كان نتيجة هذا كله أن ازداد عدد السكان إلى حد لم يجدوا أمامهم فيه سوى الهجرة إلى الخارج . وخصوصاً بعد القضاء على ثورة المكابيين التى تعتبر آخر احتجاج عنيف للأمة اليهودية أمام ضغط الظروف الخارجة . واضطرارها إلى النزول عن مقوماتها القومية والأخذ بالمدينة غير اليهودية . ونستطيع أن نقرر أنه منذ ذلك الخروج الذى أعقب تخريب المعبد الثانى أفقد اليهود أغليتهم بين سكان فلسطين كما فقدها كوطن قومي (١) .

خرج اليهود من هذه المحنة مواطنين رومانيين وهاجروا إلى إيطاليا واسبانيا وفرنسا وألمانيا الغربية قبل أن تصلها قبائل الجرمان نفسها . ويبدو لنا أن احتفاظ اليهود بقوتهم وشخصيتهم طوال التاريخ بعد أن بادت أمم عاصرتهم واندجت

(١) انظر :

Coon, C.S. op. Cit. pp. 435 ff. Also Haddon, A.C. & Huxley, J.S. We Europeans, London 1930, Ch. VI.

في غيرها من الأمم ، يرجع إلى العاطفة العنصرية الدينية التي أشرنا إليها وإلى ظاهرة التشتت أو الخروج من هضبة يهوذا والانتشار في أنحاء العالم اليوناني ثم الروماني بل الانتشار بعد ذلك في العالم الإسلامي . وأخيراً الانتشار في أرجاء المدينة الغربية . لقد انتشر اليهود في ركاب كل مدينة كبرى في التاريخ منذ العصر اليوناني الروماني . وقد ساعدتهم على ذلك عدم تقييدهم بقومية محلية معينة بحيث تنهار معنويتهم بانهارها وتزول قوميتهم بزوالها . وما أسرع ما غادروا السفن قبل أن تغرق وما أسرع ما اتصلوا من حضارة وتلاءموا مع أخرى . فهم يرتبطون بالعالم الاغريقي إبان قوة الحضارة الاغريقية الرومانية ثم عادوا يحتلون مركزاً ممتازاً بين الأمم الكتابية إبان ازدهار الحضارة الإسلامية ثم عادوا يحتلون مركزاً ممتازاً في حضارات الغرب الأوروبية الأمريكية .

في الوقت الذي بدأت فلسطين تفقد فيه الصبغة اليهودية بدأت القبائل العربية أو المستعربة تتسلل إليها . ونقصد باستعراب فلسطين اصطباغ البلاد بالصبغة العربية . وليس معنى هذا أن سلالة حلت محل سلالة ، إذ لم يبذل العرب أي جهد لقهر فلسطين بالقوة إلا في القرن السابع الميلادي والواقع أن العرب الشماليين ينتمون إلى نفس السلالة التي ينتمي إليها الكنعانيون التي تكون غالبية سكان فلسطين ولذلك لم يجد العرب صعوبة كبيرة في استعراب بني عموميتهم من الكنعانيين ، الذين تمثلوا السلالة الفلسطينية ، بعد أن فقدوا قوميتهم في العصر اليوناني الروماني .

ولعل عملية استعراب فلسطين قد بدأت منذ الغزو العبري نفسه . فقد لاحظنا أن العبريين لم يكونوا سوى مجموعة سامية اختلفت لهجتها عن العربية وباختلاف المنازل والأوطان ازدادت الشقة اتساعاً بين اللهجتين ازدياداً جعلهما لغتين متمايزتين وان اتفقا في الأصل وفي كثير من المميزات اللغوية . وقد كان يصحب القبائل العبرية أحلاف سامية أخرى سكنت شرقي الأردن وجنوب فلسطين في إقليم الخليل وغزة وما عرف بعد ذلك باسم النجب (١) . ومنها

(١) النجب لفظة عبرية بمعنى الجنوب ولم ينصرف معناها إلى المثلث الجنوبي لفلسطين إلا بعد إبرام معاهدات الصلح عقب الحرب العالمية الأولى وإنما انصرف معناها العبري إلى إقليم غزة وبئر سبع والجليل فقط .

قبائل سودوم وأيدوم والاسماعيليين وقد احتفظت هذه القبائل بمرونتها وحريتها في التحرك واتصالها المستمر بالقبائل البادية شمال شبه جزيرة العرب. واحتفاظها بالصبغة البدوية أو نصف البدوية مما ساعدها على متابعة التطور الأثنولوجي في شمال شبه جزيرة العرب. فهي لم تعتق مذهباً دينياً أو قومياً أو عنصرياً محددًا بحدود مكانية كما فعل العبريون في هضبة يهوذا. فهؤلاء الأخيرون - في رأينا - قد قطعوا كل صلة بينهم وبين أبناء عموماتهم من البدو. وذلك باتخاذهم وطناً ثابتاً واكتسابهم عصبية دينية قومية ميزتهم عن أحلافهم.

كذلك لا نعدو الحقيقة إذا قلنا أن هذه القبائل التي وفدت في ركاب العبريين ولم تتأثر بعصبيتهم الدينية يمكن اعتبارها طلائع العرب في فلسطين وسوريا وقد ظهرت جموعهم في شكل منظم ذي أثر في تاريخ البلاد في القرن السابع ق. م. عندما قامت دولة الايدوميين في العصر الاغريقي الروماني وامتدت دولتهم شمالاً حتى نخط يمتد من حبرون (الخليل) شرقاً إلى عسقلون على الساحل غرباً. وقد حلت محلها دولة الانباط وهي دولة عربية كانت تكتب لغتها بحروف اغريقية وكانت مخالفة للحضارة الاغريقية. وهذه الدولة شملت جنوب هضبة يهوذا أو السهل الساحلي حتى غزة شمالاً وبالرغم من أن قوات تراجان قد قضت على هذه الدولة وتهدمت عاصمتها سلع (بتر) في أوائل القرن الثاني الميلادي. إلا أننا نستطيع أن نتصور أن أهلها عادوا جملة إلى شبه جزيرة العرب (١). فقد كان اتجاه هجرات البدو عموماً على عكس هذا الاتجاه تتجه إلى أطراف الهلال الخصيب، تتسلل في بطنه ولكنه مؤكدة ثابتة وتحتل المناطق شبه الصحراوية في جنوب فلسطين وتتحول تدريجياً إلى حالة نصف بدوية ثم تستقر وتندمج في السكان السابقين لهم في البلاد حتى أصبحت الغلبة آخر الأمر لعنصرهم عندما أصبح اليهود أقلية عديدة وعندما ضعف شأن الاغريق والرومان في البلاد حتى إذا دخل العرب فلسطين غزة فاتحين في القرن السابع الميلادي كانت البلاد مهياً لاستقبالهم بغالبية سكانها العرب أو المستعربين.

(١) انظر :

Huzayyin, S.A. Arabia & The Far East, Cairo 1942 pp. 6 ff. & 219 ff.

٦ - الشعب العربي الفلسطيني :

يختلف عرب فلسطين عن جيرانهم سكان سوريا بأن صفاتهم أقرب إلى صفات العرب الشماليين منهم إلى صفات السوريين أو سكان شرقى البحر الأبيض المتوسط الذى يطلق عليهم الأنثروبولوجيون اسم Levantines فهم ينتمون إلى سلالة البحر المتوسط المتوسطة القامة ذات الرأس الطويل (النسبة الرأسية ٧٨ - ٧١ر٨) . على أن سكان المدن ولا سيما الموانىء أكثر اختلاطاً من سكان الريف . ويميل الرأس فيهم إلى الاستعراض (النسبة الرأسية ٨١ر٨) والقامة إلى الطول . هذا إلى وجود الشعر الأشهب شائعاً بينهم ولعل أحدث اختلاط حدث بين السكان المسلمين فى فلسطين وشرقى الأردن هو هجرة السيراكوسيين المسلمين من سكان بلاد القوقاز الذين أبوا الخضوع لحكم قيصر وسمح لهم السلطان عبد الحميد بالهجرة إلى سوريا فى مطلع القرن الحالى .

هذا عن السكان المستقرين وسكان المدن . أما عن سكان البادية الذين كانوا إلى عهد قريب لا يزالون يرعون قطعان الضأن والإبل فى هضبة يهوذا وجنوبى فلسطين فإنهم يمثلون الطراز السامى الأصيل المنتمى إلى شمال شبه جزيرة العرب . وهم يمتازون بطول الرأس (١) إلا أن سكان النجب واقليم غزة يظهر عليهم بعض أثر مصرى من الطراز الجيزاوى العريض الرأس أو متوسطها والمتملىء القامة (النسبة الرأسية تراوح بين ٧٨ و ٨١ر٧) .

ويبدو أن هذا لا يدعو إلى الدهشة فقد ظلت مرتفعات فلسطين محتفظة بالصبغة السامية لم تفقدها قط فى تاريخها الطويل اللهم إلا إذا استثنينا بعض الخصائص الحيثية فى فجر التاريخ . إذ أنها خضعت دائماً وبصفة مستمرة لظروف الهجرة العربية الدائبة من الجنوب . أما سكان السهل الساحلى فقد تأثروا بالشعوب الايجية منذ فجر التاريخ كما أنهم تأثروا بغيرهم من شعوب شرقى البحر الأبيض المتوسط . ولذلك ظهرت بينهم الرعوس المستعرضة ويرى

(١) انظر :

Kappers, C.V.A. Anthropology of The Near East in Ancient and Recent Times. Beirut 1932.

بعض الكتاب أنهم خليط من سلالات رئيسية ثلاث . هي سلالة البحر المتوسط
والسلالة الأرمينية والسلالة الكردية (١) .

٧ - اليهود وانتشارهم في العالم ومميزاتهم الجنسية :

أما وقد بدأت الهجرات اليهودية تفد على فلسطين منذ أواخر القرن التاسع
عشر ثم ازدادت عدداً واستفحل خطرها منذ الانتداب البريطاني على فلسطين
سنة ١٩٢٠ فاننا نرى أنه لا بد من تتبع مصادر هذه الهجرات اليهودية إذ أن
دراساتهم الجنسية لا يمكن فصلها عن دراسة أوطانهم التي هاجروا إليها وعاشوا
بين ظهرائي أهلها .

من الخطأ محاولة ربط اليهود بسلالة معينة أو بقطر معين ، فاليهودى
« مواطن عالمى » بأدق معنى هذه العبارة . وهذه الصفة وحدها هي التي حفظت
لهم كيانهم ، فلم يندثروا كما حدث لغيرهم من الأمم القديمة . هذا إلى أن اليهودى
كما يقرر الأستاذان هكسلى وهادون (٢) نتاج بيئته المحلية وهذا أمر متوقع
إذ لم يزد عدد بنى اسرائيل فى يهوذا عن ثلاثة أرباع المليون نسمة ثم أصبحوا
فى تقدير هذين الأستاذين (٣) سبعة ملايين يعيشون فى الامبراطورية الرومانية
وهم يبلغون الآن حوالى عشرين مليون نسمة . هذا رغم المذابح العديدة
والاضطهادات المتكررة التي تعرضوا لها فى أكثر من قطر من أقطار أوروبا
منذ عصر النهضة . ولا يمكن أن يكون هذا العدد غير نتيجة لتزاوج اليهود مع
الشعوب التي عاشوا معها . ولاعتناق أفراد هذه الشعوب أو بعضهم للدين
اليهودى . ويحدثنا التاريخ عن الخزر الذين دخلوا فى اليهودية جملة فى القرن السابع
الميلادى هذا عدا بعض القبائل السابقة للجرمان وبعض قبائل الكلت التي اعتنقت
اليهودية قبل انتشار المسيحية فى أوروبا .

(١) انظر :

Luschan, F., von, The Early Inhabitants of Western Asia, J.R.A.J.
911, vol. 41, London, 1913, pp. 221-244.

(٢) راجع :

Haddon, A.C. & Huxley, J. We Europeans, London 1935, pelican 1939.

(٣) نفس المرجع ص ١٥٢ .

من هذا يتبين أنه من العبث محاولة البحث عن سلالة يهودية في الوقت الحاضر . فمثل هذه السلالة على فرض وجودها أصلاً قد اندثرت منذ خروج بني اسرائيل من هضبة يهوذا في القرن الأول الميلادي واختلاطها بجيرانها ودخول بعض العناصر الجديدة في تكوينها مما جعل اليهودية تنصرف عن معناها العنصرى القديم إلى معنى دينى حديث . مثلها في ذلك مثل غيرها من الديانات الكتابية الأخرى . ينتمى إليها عناصر وسلالات متعددة . وهذا يفسر الخليط الجنسى العجيب الذى عليه اليهود في الوقت الحاضر فيمكن أن ينتمى اليهودى إلى أى سلالة من سلالات البشر ما عدا الزوج والهنود الأمريكيين وغيرهم من السلالات البشرية البدائية فإلى جانب السلالات القوقازية البيضاء بعناصرها الرئيسية المعروفة نجد الهنود اليهود والصينيين اليهود في أقصى الشرق واليهود السود (الفلاشا) فى الحبشة ممن يطلق عليهم فشرح اسم اليهود ديناً لا عنصراً .

ولهذا كان من العسير علينا قبول تقسيم فشرح لليهود (١) إلى يهود ديناً وعنصراً ، ويهود ديناً فقط ويهود عنصراً فقط ، كما أنه من الصعب قبول منطق كون (٢) الذى حاول به أن يثبت وجود سلالة اثنولوجية يهودية . وان اختلفت فى شكل الرأس أو القامة أو لون الشعر أو غيرها من المميزات الجنسية العامة . اعتماداً على وجود بعض صفات الوجه التى جاهد فى إثبات وجودها . مثل شكل الوجه وقرب ما بين العينين وظنها كافية لأن تميزهم كمجموعة اثنولوجية أو كسلالة قائمة بذاتها . ولهذا أيضاً لا نستطيع أن نقبل تقسيم اليهود على غير أساس مذهبي كغيرهم من الجماعات الدينية . وهو التقسيم المعروف إلى اشكنازية ، وسفاردية ، وقرائين أو شرقيين . ويمكن أن ندخل فى القسم الأخير السامريين أو يهود فلسطين الأصليين .

(١) انظر :

Fishberg, M. The Jews. A Study of Race & Environment, London & New York, 1940, CL. V.

(٢) انظر :

Coon, C.S. Loc. Cit. pp. 442 et seq 8 pp. 640 et seq.
Jacob, J. On the Racial Characteristics of Modern Jews. J.A.J. Vol. 1 886 pp. 23-62 vol. XV. London 1886, Fishberg, M. 1910 Loc. cit ; Fishberg, M. Boas Anniversary vol. 1906 pp. 55-65 & Weissenberg, (S. Mitt. Anthropol. Gessell. Wien) vol. 42, pp. 85-102.

الاشكنازية أكبر طائفة يهودية في العالم الآن من حيث العدد وربما كانت أهمها من حيث الثقافة والنفوذ وترجع في نشأتها إلى يهود الراين الذين لا قوا نوعاً من الاضطهاد الديني بعد الحروب الصليبية الأولى سنة ١٠٩٦ م فاتجه جزء منهم شرقاً إلى بوهيميا وبولندا ثم إلى روسيا وهناك تقابلوا مع من سبقهم من اليهود البيزنطيين والحزر الداخلين في اليهودية . وتكونت من امتزاج هذه العناصر اليهودية جميعاً المجموعة الاشكنازية التي تتكلم لهجة ألمانية قديمة تكتبها بالحروف العبرية وتسمى باللغة اليهودية Jeddish وإن كانت تحتفظ لغة للطقوس الدينية وتشمل الاشكنازية في الوقت الحاضر يهود وسط أوروبا وشرقيها ومن هاجر منهم إلى الأمريكتين أو جنوب افريقية أو فلسطين ويمتاز أفراد هذه الطائفة بالقامة الربعة المتوسطة المليئة التي تميل إلى القصر (١٦٢ - ١٦٧ سم) في المتوسط ، والرأس العريض . كما تتراوح النسبة الرأسية بين ٨١ في ألمانيا إلى ٨٤ في بوكوفينا و ٨٥ في تركستان وبنجاري وسمرقند . ولون الشعر أشهب وتبلغ نسبة السمرة بينهم ٥٥٪ بينما لا تزيد الشقرة الخالصة على ١٠٪ على أن صفة الشقرة تزداد بازدياد وجودها بين الشعوب التي يسكنون بين ظهرانيتها والحلاصة أنهم يتفوقون في كثير من الصفات الألبية والسلافية الموجودة في شرقي أوروبا ووسطها .

أما الطائفة السفاردية فهي بقايا اليهود الذين طردوا مع العرب من الأندلس (١٤١٢ م) ثم هاجروا إلى هولندا وإنجلترا شمالاً وإلى شمال افريقيا جنوباً وإيطاليا شرقاً . وقد اعتصم عدد كبير منهم بالامبراطورية العثمانية الناشئة وقطنوا البلقان وآسيا الصغرى والشرق الأدنى وقد احتفظ هؤلاء بلهجة اسبانية تسمى اللادينو في البلقان أو الاسبانيولية Espaniole في غيرها . ويمتاز أفراد هذه الطائفة بالقامة النجيلة المتوسطة (١٦٢ سم) والرأس الطويل أو المتوسط (النسبة الرأسية ٧١) ونسبة الشقرة بينهم قليلة لا تعدو ٥٪ إلا أنهم يتفوقون مع الاشكنازية بضيق ما بين العينين .

أما اليهود الشرقيون أو القراءون فيشملون السامريين وهي أقدم مجموعة يهودية في العالم وربما كانت المجموعة اليهودية الوحيدة التي ظلت في فلسطين لم ترحها قط . وهي مجموعة ضئيلة تسير نحو الانقراض ، وتمتاز بالقامة المتوسطة أو الطويلة والرأس الطويل والشعر الأصهب . وهي تتكلم العربية ومن العسير التمييز بينهم وبين عرب نابلس الذين يعيشون معهم . كما تشمل يهود مصر والعراق واليمن وشمال افريقية . وهؤلاء يمتازون بصفات سلالة البحر الأبيض المتوسط بصفة عامة وأقرب إلى السفاردية منها إلى الاشكنازية .

مما تقدم يتبين أن اليهودى نتاج بيئته التي يعيش فيها ويتأثر بأهلها ويتصاهر معهم وتختلط أصوله بأصولهم . وقد بين فشيرج في كتابه عن اليهود أنهم يختلفون في مميزاتهم الجنسية من مكان إلى آخر تبعاً لاختلاف هذه المميزات الجنسية بين الشعوب التي يسكنون بين ظهرانيها . هذا إلى أن اليهود في عصور الاضطهاد الطويلة التي تعرضوا لها في أوروبا وغيرها من العالم القديم امتازوا بمميزات سيكولوجية ليس إلى قياسها بمقاييسنا الجنسية من سبيل . وربما أكسبهم ذلك سحنة خاصة يغلب عليها الحزن والأسى . يطلق عليها - مع كثير من الحذر والحيطه - اسم السحنة اليهودية . ولكن هذه السحنة وليدة الجيتو Ghetto وحرارة اليهود أو قاع اليهود إلى آخر ما يطلق على أحيائهم الخاصة في البلاد التي تفصلهم عن بقية الأهلين . وسرعان ما تزول هذه السحنة إذا تحطم جدار الجيتو أو نعموا بمزيد من الحرية الشخصية كما هي الحال في الولايات المتحدة الأمريكية وإنجلترا .

مثل هذا الخليط من الناس الذي يتمثل في الاشكنازي الربع القامة - العريض الرأس - وفي التقاطيع الغليظة والسيفاردى النحيل الدقيق التقاطيع والألماني الأشقر ذى العيون الرمادية أو الزرقاء واليمنى المتوسط القامة الضيق الرأس القليل الشعر . كل هذه الأخلاط من الناس قد بدأت تهاجر هجرات منظمة منذ سنة ١٩٢٠ . والتاريخ وحده هو الذى سيحكم في الأجيال القادمة على إمكان صهر هذه السلالات المختلفة المتباينة الثقافة في سلالة متجانسة واحدة . وهو أيضاً سيحكم على علاقته بالعربى الفلسطينى والعربى فى جيران فلسطين .

٨ - ملاحظات عامة وتلخيص :

١ - ذلك ما يمكن أن يصل إليه الباحث عن تطور سكان فلسطين حتى الأمس القريب فلا يعلم إلا الله ما تكون عليه الحال في مستقبل الأيام . ولا سيما بعد أن أجبر على الخروج من فلسطين هذا العدد الضخم الذي شرد في الآفاق . وبعد أن فتحت أبواب البلاد على مصاريحها لعدد أضخم من شذاذ اليهود ولذلك وجدنا من العبث إيراد إحصائية بسكان فلسطين حسب الدين أو العنصر ولنكتنا نكتفي بالإشارة إلى خريطة توزيع السكان في المدن والقرى والساكنة الفلسطينية التي أعدها لجنة التحقيق الانجلوأمريكية عام ١٩٤٥ حسب الدين (١) . فهي في الواقع تعد وثيقة لمرحلة تاريخية وصلت إليها البلاد في ذلك الوقت . ونكتفي بالإشارة أيضاً إلى أن أغلبية اليهود كانت تسكن - كما لا تزال - في السهل الساحلي شمالي غزة حتى حيفا . وفي سهل مرج ابن عامر أما هضاب الجليل والسامرة ويهوذا فأغلبية سكانها من العرب .

٢ - يلاحظ أن معظم البحث في سلالات فلسطين القديمة يقوم على أساس تاريخي . وهذا أساس سليم . أما في العصر الحديث فلم يتم باحث بأخذ مقاييس انثروبولوجية في أي جزء من أجزاء فلسطين اللهم إلا أبحاث فابنبرج عن يهود السامرة ثم بعض ملاحظات انثروبولوجية عامة للأستاذ كابرز عن فلسطين كجزء من إقليم الشرق الأدنى . أما الأبحاث الخاصة باليهود فكانت على أساس اقليمي قام بها الباحثون من أجزاء مختلفة من العالم حيث يوجد اليهود . وأهمها الدراسات التي قامت عن يهود نيويورك بوصفهم يمثلون قطاعاً يهودياً من مهاجري شرقي أوروبا ووسطها وربما من جنوبيها وشمالها أيضاً .

٣ - من الطريف أن يلاحظ طلاب الجغرافيا أثر العوامل الجغرافية في توجيه الهجرات البشرية إلى فلسطين . ولا نغالي إذا قلنا في صبغ الشعوب المستوطنة في أجزائها المختلفة بصبغة خاصة واعطائهم صفات خاصة . مختلف بعضها عن البعض الآخر في التفكير والسلوك .

(١) Maps Relating to the Anglo-American Committee of Enquiry Report, Lausanne, April, 1946.

فقد تتبعنا هجرات الشعوب إلى فلسطين خلال التاريخ . ونستطيع أن نلخصها الآن في قسمين . قسم هاجر من الصحراء واستقبلته سهوب جنوب فلسطين المتوسطة الارتفاع التي تتحول بالتدريج من نبات البحر الأبيض المتوسط إلى حشائش الصحراء حتى تنهى أخيراً في الصحراء . وقسم هاجر من عبر البحر المتوسط واستوطن السهل الساحلى . أما المصدر الأول للهجرات فكان أبقاها أثراً وأكثرها دواماً . ولولا اصطناع الحدود السياسية التي لا يعترف بها البدوى لظل أجد الدهر يعمل على تغذية فلسطين بدم بدوى جديد . لا يلبث أن يستقر ويستوطن البلاد ويعيد لها حيويتها ويربطها بماضيها في الصحراء منذ عهد إبراهيم ولوط واسماعيل عليهم السلام . وأما المصدر الثانى فلم يكتب له هذا الاستمرار والدوام ، ولكنه دفع إلى البلاد بعنصر هام هو عنصر الفلسطينى فى التاريخ القديم ونستطيع أن نقرر أنهم العنصر البحرى الوحيد الذى قدر له أن يكون ذا شأن فى فلسطين . فلقد جاء الاغريق بعدهم وأسسوا مستعمراتهم التجارية ثم غادروا البلاد ومن بعدهم الصليبيون وأعادوا الصلة بين شرقى البحر المتوسط وجنوبيه وغربيه وشماليه ولكنهم ما لبثوا أن عادوا أدراجهم وطردها من البلاد طرداً ، بعد غزوات صلاح الدين الموقفة . والآن يفقد يهود أوروبا وقصتهم معروفة . وينزلون منازل الصليبيين فى فترة من فترات العصور الوسطى . والاغريق والرومان فى التاريخ القديم وليس من العسير التكهن بمصيرهم الآن .

٤ - نستطيع أن نعتبر أن عرب فلسطين هم سكانها الأصليون . النتيجة أو الخلاصة الانثروبولوجية لجميع الهجرات التى وفدت إليها واستوطنتها وانصهر بعضها فى البعض الآخر . وانتهى إلى شعب واحد أصله كنعانى تأثر بمن آثر البقاء فى البلاد من بنى اسرائيل . أو اعتنق المسيحية فى قرونها الأولى . وأدمج فى عنصر الفلسطينى . ولم يكن ذلك صعباً أو عسيراً فكلاهما من سلالة البحر المتوسط . وقد ظل ذلك العنصر القديم - العنصر الكنعانى - يتمثل الهجرات البدوية خلال العصور التاريخية حتى الأمس القريب .

٥ - قد وجدنا صعوبة في اعتبار اليهود سلالة اثنولوجية واحدة اللهم
إلا إذا سلمنا بأن الفريق العريض الرأس منهم آثر الهجرة من فلسطين إلى شرق
أوروبا ووسطها . وأن الفريق الطويل الرأس آثر الهجرة إلى جنوبها وشمالها
الغربي وفي هذا صعوبة منطقية . أما اليهود غير القوقازيين فنترك أمرهم جانباً .
فإن دعاة السلالة اليهودية لم يشيروا إليها من قريب أو بعيد . . .

محمد السبر غراب

